



عبد الإله بلقزيز

العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧). ١٧٦ ص.

كرم الحلو

باحث لبناني.

نحو قراءة نقدية موضوعية: في مقالات الحداثيين العرب

نابليون إلى الحرب العالمية الأولى، ما وُلد لدى كثير من الباحثين العرب شكاً في أصالة فكرة الحداثة، وفي شرعيّتها التاريخية. لكن نشوء المقالة الحداثيّة في ثقافتنا المعاصرة بتأثيرات وافدة من خارج، وكونها مستعادة من التراث الأوروبي، ليس مبرّراً للطعن فيها والريبة إزاءها، فاليابان والصين أو الهند لم تكن أقلّ اعتزازاً بتراثها التاريخي، لكنها لم تطرح على نفسها سؤال الحداثة على نحو ما تطرحه الثقافة العربية منذ قرنين، إذ إنّ ولوج فكرة الحداثة ثقافتنا وفكرنا العربيين تم منذ ما لا يقلّ عن ثلاثة أرباع القرن، لكن سؤالها لم يبرح يفرض نفسه على حاضرنا حتى اليوم. وقد يكون مردّ ذلك إلى هشاشة الحداثة الفكرية والتباس مفهوماها مع مفهوم التحديث، كما إلى انكسار المشروع القومي العربي، وهزيمة المعسكر الاشتراكي، وسقوط الكثير من

سؤال الحداثة من الأسئلة المزمّنة في فكرنا العربي الحديث، فقد طُرِح على العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولكنه على الرغم من ذلك لم يلقَ ما يستحقّه من اهتمام الباحثين. ولعل هذا بالذات ما حدا عبد الإله بلقزيز على إعادة كتابة تاريخ الحداثة في الفكر العربي المعاصر، في محاولة لإعادة الاعتبار إلى هذا الخطاب الذي لحقه، كما يقول المؤلف في مقدمة كتابه، حيف شديد وتعرّض لتهميش كبير، وبخاصة في الربع الأخير من القرن الماضي.

الحداثة وفق بلقزيز هي خطاب ثقافي جديد يقترح على الوعي العربي رؤية مختلفة للعالم والمجتمع والثقافة، متميزة من الرؤى والتصورات السائدة، وهي حصيلة تراكم تاريخي طويل الأمد، وقد ولدت في تاريخنا العربي الحديث في ركاب زحف سياسي وعسكري أوروبي منذ غزوة

يقينيات الخطاب الحداثي، واندفاعه التقليد المتجددة.

لقد خرجت فكرة الحداثة من رحم التحولات الكبرى في أوروبا العصر الحديث معلنة انتصار الفعل على اللاهوت ومركزية «الإنسان» بوصفه جوهر العالم. لكن مجتمعات العالمين العربي والإسلامي أبدت أشكالاً من الممانعة إزاء هذا التحول المعرفي، بدءاً من الممانعة الحادة والشاملة مع المراكز الدينية في مصر والعراق والمغرب، وصولاً إلى الممانعة البعدية مع سيد قطب وأيمن الظواهري وسعيد حوى، مروراً بالممانعة المتكيفة مع الطهطاوي وعبد والكواكبي.

إن إنتاج حداثة فكرية حقيقية يبدأ، في رأي المؤلف، من نقد خطاب الأصالة التي تجد منطلقاتها الرئيسية في الاعتقاد بتفوق الإسلام على غيره من العقائد والنظم الاجتماعية والسياسية، وعدم الحاجة تبعاً لذلك إلى «الآخر» والتعامل مع مدينة الغرب بوصفها «جاهلية» وأيلة إلى اندحار وانحطاط مادي وخلق بسبب طبيعتها اللادينية.

انقسم الحداثيون العرب بين الليبرالية والإصلاحية. المقالة الليبرالية حديثة وجامعة جهزت بمضمونها العلماني، وقد عبّر عنها في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في بلاد الشام، بطرس البستاني وشبلي الشميل وفرح أنطون وأديب إسحاق، وفي العقود الأولى من القرن العشرين في مصر، أحمد لطفي السيد وسلامة موسى وطه حسين. أما المقالة

الإصلاحية، فقد سلّمت بجاذبية النموذج الأوروبي وضرورة الأخذ به، إلا أنها في الوقت نفسه حذرت من التسليم بوحدانيته المرجعية وتفوّقه على النموذج الإسلامي.

إلا أن خطاب الحداثة الذي عرف انطلاقته الباهرة آخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ما لبث أن شهد نكستين ثقافيتين في القرن العشرين وضعته في حال من التراجع والضمور: الأولى في عشرينيات ذلك القرن، إذ تراجع محمد رشيد رضا عن فكرة الدولة الوطنية الحديثة وانكفأ إلى فكرة الخلافة، وتعرّض طه حسين وعلي عبد الرازق للمحاكمة، واستعيد خطاب الأصول والهوية مع حسن البنا والأزهريين التقليديين، وأعلن طه حسين وعباس محمود العقاد التوبة الثقافية.

أما الثانية فقد أعقبت نكسة ١٩٦٧ وصعود النظم السلطوية العربية الكابحة للحريات والقامعة للرأي المختلف، ما آذن بانتقال دراماتيكي في الفكر والسياسة إلى حقبة جزر وانحسار، وتقدّم خطاب الهوية والأصالة وتراجع خطاب الحداثة.

وعرض بلقزيز لجدل الأنا والآخر في الوعي العربي المعاصر بوصفه وجهاً من وجوه التفاعل الحداثي مع الغرب، فذهب إلى أن هذا التفاعل تراوح بين الرفض النرجسي المنكفئ إلى الموروث، وبين الوعي الشقي بدونية الأنا أو البحث عن الجوامع المشتركة بين الأنا والآخر.

وتوقف المؤلف أمام حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي الحديث باعتبارها

الإصلاحية الإسلامية الاجتهادي التنويري، بنقده الفكرة الشيوقراطية عن السلطة والدولة، وإسقاطه الشرعية الدينية عن مؤسسة الخلافة، ودعوته إلى قيام نظام سياسي يستمد شرعيته من المجتمع والناس.

ومن سوء التقدير أن يُنظر إلى الرؤية الحداثية لطله حسين، الحداثي المدفوع بأفكاره إلى الحدود القصوى، وكأنها محض تردد للبرالية الغربية، بل كمنزعة مبكر لديه إلى مشاركة أفكار الحداثة والانتصار للجديد على القديم باعتبار المدنية الأوروبية مصيراً كونياً لا يقبل الممانعة.

في نظرة ختامية، يمكن القول إن المؤلف قدّم رؤية أقرب ما تكون إلى الدقة والموضوعية لفكرة الحداثة العربية، وإن لم تُضف كثيراً إلى كلاسيكيات الدراسات السائدة في هذا المجال.

تبقى ملاحظتان على هامش الكتاب:

أ – لم يأت المؤلف إلى ذكر فرنسيس المارش (١٨٣٦ – ١٨٧٤)، الرائد الحداثي الذي سبق الشميل وإسحق والكواكبي وأنطون إلى المناداة بأفكار والتنوير والعقلانية والحداثة، والذي سبق كذلك أحمد لطفي السيد بما يقرب من نصف قرن، إلى تأصيل فكرة الحرية في الفكر العربي الحديث بوصفها أساس النظام السياسي والاجتماعي، وباعتبار الإنسان مولوداً في كمال الحرية الأدبية، ما ينقض رأي المؤلف في أن فكرة الحرية لم تجرؤ على إبداء انحيازاتها الصريحة في الفكر

أبرز مظاهر الحداثة العربية، فرأى أن مؤرخي الفكر العربي المعاصر ماهوا بين العقلانية والتنوير وبين الليبرالية.

لكن الفكر الليبرالي لم يكن الممثل الوحيد للعقلانية، فعقلانية محمد عبده لا تقل عن عقلانية فرح أنطون، وعقلانية الكواكبي ربما تجاوزت مثيلتها لدى أديب إسحق. وعلي عبد الرازق وأحمد أمين لم يكونا أقل عقلانية من طه حسين. ثمة عقلانية إصلاحية إسلامية مع محمد عبده وخير الدين التونسي، وعقلانية ليبرالية مع لطفي السيد وطه حسين وأديب إسحق وفرح أنطون وسلامة موسى، وأخرى نقدية مع عبد الرحمن بدوي ومحمد عابد الجابري وهشام جعيط وحسن حنفي وإدوارد سعيد.

بجميع المعايير، شكّلت الإصلاحية الإسلامية ثورة فكرية في المعرفة العربية والإسلامية، إلا أن مشروعها أجهض بعد أقل من قرن على انطلاقته. لقد حصل الانتقال من إشكالية النهضة إلى إشكالية الهوية.

وخصّص المؤلف حيّزاً من كتابه لأحمد لطفي السيد وعلي عبد الرازق وطه حسين، فمع نصوص السيد شهدت فكرة الحرية تجلياتها الأكثر وضوحاً في الفكر العربي الحديث، بوصفها جبلة في الإنسان، وأساس التمدن والنهضة وجوهر الكينونة الإنسانية. وبهذا يكون السيد الممثل الأبرز لأيديولوجيا الحرية في الفكر العربي المعاصر.

أما عبد الرازق، فيستأنف خطاب

العربي إلا في مستهل القرن العشرين. المشرقيين، مسلمين ومسيحيين، كان عثماني
الولاء وحرصاً على الرابطة العثمانية.

وقد أصدر صحيفته: الجوائب عام
١٨٦٠ في إسطنبول، حيث ظلت تصدر إلى
عام ١٨٨٤ بدعم مالي من الصدر
الأعظم، كما كان الشدياق على علاقة
جيدة أيضاً بالعديد من رجالات الدولة
العثمانيين ■

ب - على الضد مما ذهب إليه بلقزيز،
لم يلجأ أحمد فارس الشدياق إلى المهجر
«هرباً من نير الاضطهاد التركي»، بل هرباً
من استبداد رئيس طائفته الذي سجن أخاه
أسعد وعدّبه حتى الموت، وكان ليلقى المصير
نفسه فيما لوبقي في وطنه. والشدياق
بالمناسبة، كما أكثر رجالات النهضة

صدر حديثاً

الاحتلال الأمريكي للعراق المشهد الأخير

مجموعة من الباحثين

بعد سنوات من جريمة غزو وتدمير العراق لم
يستطع أحد أن يقول لنا لماذا وتحت أي مبررات وذرائع
هاجمت أمريكا العراق، وبكل ذلك العنف والقوة، ولماذا
دمرت الدولة العراقية، وحولتها إلى بلد تعصف به
الفوضى، وتسود فيه فرق الموت وعصابات المرتزقة،
ويحكم من قبل موظفي الشركات العسكرية الأمنية
الخاصة!!، وتتصاعد فيه حمى اضطراع طائفي، وتتم
تغذيته لمصالح إقليمية ودولية، في مقدمتها الحركة
الصهيونية العالمية.

ومن المدهش أن القادة في أمريكا ما زالوا يصرون
على إمكانية كسب هذه الحرب، فيما تكشف زيادة
معدلات القتل بين الجنود الأمريكيين والخسائر في
المعدات العسكرية، وتزايد معدلات القتل المدنيين
العراقيين، وتعاظم المشاكل الحياتية في المجتمع العراقي،
وانعدام أبسط مقومات الحياة وانتشار الفساد والبطالة
والتضخم، أن تلك الحرب لا يمكن أن تقود إلى أي حل
منظور يلبي حاجة العراقيين إلى السيادة والحرية، بل إن
كل يوم يمر يوقع المنطقة بأسرها في أتون من المشاكل،
لا أحد يستطيع أن يتوقع نتائجه على الجميع.



١٧٤ صفحة
الثنى: ٦ دولارات
أو ما يعادلها